الحلقة (١٢)

هنا نعيد من أين تنبع الأخلاق؟ ومن أين تتكون في المجتمع؟

الإسلام كما أشرت بالحلقة السابقة يأمر بأشياء مركوزة بالفطرة،فإذا تأملنا الأخلاقيات التي جاء بها الإسلام، وجدنا أن بعضها هو تأكيد لما هو موجود، وبعضها شيء جديد يرفع بعض ما هو موجود ويلغيه، وبعضها يؤسس لأخلاق جديدة، ولذلك نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام لما جاء هناك من أخلاقيات العرب ما أُقِر، ومنها ما هُذب، ومنها ما أُلغي، لماذا؟

لأن المراعى في هذا هو الأساس، وهو عبادة الله وحده، فالتأسيس على عبادة الله يهذب قيماً، وبعض القيم قد تكون أصلا من بقايا الدين، لم يمسها التغيير ولم يطولها التغيير، وبالتالي تبقى كما هي، وبعضها ارتبطت وإن كانت ذات أصل ديني وذات أصل فطري، إلا أنها ارتبطت بالواقع الاجتماعي المخالف لله، وبالتالي أقيمت على الحق مثل الكرم والشجاعة، على سبيل المثال الكرم يراد به الثناء على الشخص ومدحه، وهذا ليس في سبيل الله، ومثل الشجاعة التي يقاتل بها الرجل حمية عن قومه وليس حمية عن الله ورسوله، لذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل: (**الرجل يقاتل حمية ويقاتل حتى يرى مكانه في الصف أي ذلك في سبيل الله؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله**) فالنبي أقام هذه القيمة على ابتغاء وجه الله، ونبه إلى ذلك.

كذلك الثلاثة أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، الثلاثة نفر، يؤتى بهم فيؤتى بإنسان تعلم القرآن وعلمه في الظاهر، فيقال له ماذا عملت؟ فيقول تعلمت القرآن فيك وعلمته، فيقال له كذبت، إنما تعلمت ليقال عالم، فيسحب ويطرح بالنار، لماذا؟ لأنه لم يرد وجه الله والدار الآخرة بعلمه، وإنما أراد ذاته وتضخيم ذاته، وإظهارها، فهو عبادة ذات..

كذلك القيمة الأخرى: يؤتى بالرجل الآخر الذي غني وأنفق المال الكثير في سبيل الله في الظاهر، يقال له ماذا عملت؟ فيقول ما تركت سبيلاً تحب الإنفاق فيه إلا أنفقت فيه، فيقال له كذبت، إنما أنفقت ليقال جواد، وقد قيل، فيؤمر به ويسحب إلى النار، الثالث الذي هو شجاع، فيقول ما تركت مكانا ونحو ذلك إلا قاتلت فيك، فيقال كذبت إنما قاتلت ليقال شجاع وقد قيل، فيؤمر به ويسحب إلى النار،

فالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث يبين للأصحاب **أن ارتباط الأخلاق أو الممارسات الخلقية بأساسها الإيماني، وأنها إذا لم تكن لله فلا قيمة لها، بل قد تضر الإنسان، وإن كانت قيمة إنسانية طيبة ومحبوبة عند الناس**، فالذي ينفق عند الناس ولم يرد وجه الله مصيبة، لكن في ظاهر الأمر شيء جميل، فهنا إذن بعض القيم أو الأخلاق بقيت بعضها على أساسه الفطري الطيب، وبعضها عدل وهذب، وبعضها ألغي إلغاء، لأنها ممارسات محرمة وسيئة طارئة على البشرية، لذلك إذا

فحصنا ونظرنا في هذا الأمر وجدنا أن الأساس لمعين الأخلاق هو، الأخلاق الفطرية المركوزة في نفس الإنسان، وأن الأديان تأتي وتهذب هذه الفطرة وتنبهها إلى الحق، وتبعد عنها السوء ولذلك قال الله عز وجل

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } فهذا هو الجذر، والدين والوحي هو المرجع في معرفة هذا الجذر الموجود في أنفس الناس،

فإذن الدين والفطرة ومقتضى الحكمة والسنن **هذه هي المصادر الحقيقية التي تتفق فيما بينها**، لأن **السُّنن** هي فعل الله سبحانه عادته في خلقه، وبالتالي لا يمكن أن تكون عادته في خلقه وفعله مناقض لما يأمر به سبحانه وتعالى، **والفطرة** هي من خلق الله سبحانه، **والدين** وحيه هو قوله وتوجيهاته للبشر، لذلك **هذه المصادر الأصلية للأخلاق**.

لكن هناك مصادر نلاحظها في حياتنا هذه المصادر **مصادر طارئة**،كالأعراف والتقاليد والعادات ونحوها، أو ما يسمى بلغة العصر **الثقافة الجامعة**، هي تصنع أخلاق ولذلك نجد اختلاف في ممارسات المجتمع، فهذه الأخلاق المصنوعة إما أن تكون متوافقة مع الحق وطيبة، فتكون مقبولة، وإما أن تكون مخالفة للحق فتكون مذمومة، لأن منها ما يجري مجرى العادة، وما كان عاديا ولا مساس له بالدين فلا شيء فيه، إذن الإنسان قد يعمل عوائد وتكون عوائد طيبة، فيكون محمودة عليها، ويعمل عوائد سيئة وتكون سيئة فيكون مذموم فعله.

(**من سن بالإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن بالإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**)هنا ينبهنا إلى الجدل بين السنة والبدعة في حياة المسلمين، فكل ما نتجت بدعة فإنها تكون على حساب سنة، وكل ما أحييت سنة فتكون على حساب بدعة،

❖ وسائل اكتساب الأخلاق:

هناك وسائل كل الناس تمارسها، ولكن الميزة هو في التكامل من جهة، معناه استخدام وسائل متعددة تتكامل فيما بينها للوصول إلى الهدف، أما أن الوسائل موجودة فالبشر كلهم يعرفون هذه الوسائل ويمارسونها، لكن يأتي الإبداع من كيفية إعمال كل الوسائل في نسق متكامل، هذا من الأشياء المميزة.

فمثلا استخدام التعليم والتوعية،

التعليم بمعنى التلقين، لأن الإنسان قد يحتاج إلى التلقين في بعض الأمور، **والتعليم** بمعنى التثقيف بمعنى العيش في جماعة، لا بد أن يكون الإنسان يعيش في جماعة وفي بيئة جيدة وصالحة حتى ينتج ويكون صالحا، نتذكر حديث الذي قتل تسع وتسعين نفسا، ثم ذهب إلى أحد العباد لكنه لا يفقه

أحكام الدين، وهنا خطورة من يتعبد الله على غير فقه، فجاء إلى هذا العابد وسأله: أنا فعلت كذا فهل لي من توبة؟

فقال له: تريد أن تتوب وقد فعلت هذا الفعل، فليس لك توبة، فأكمل به المائة، ثم ذهب ووفق لعالم فسأله فقال: من يحول بينك وبين التوبة؟

ولكن وجهه إلى شيء آخر إضافي، ليس فقط التوبة أن تتوب وأنت في بيئة فاسدة ستعود إلا ما شاء الله، لأن البيئة غلابة، ومؤثرة، وبالتالي كيف تستمر في التوبة، ليس المهم فقط بالتوبة وإنما المهم الاستمرار بالتوبة، لذلك وجهه إنك بأرض قومي قوم سوء، فاذهب إلى الأرض الفلانية ففيها قوم يعبدون الله أو شيء من هذا الكلام، **المهم أنه جمع له بين أمرين بين التوبة والبيئة،** ففتح الآفاق أمام نفسيته لكي يحرر ضميره من هذا الذي رام عليه وأثقل عليه، وتحرك وانتفض فجأة وأراد أن يتحرر من هذه الأعمال السيئة والتراكمات التي على ظهره، ففتح له باب التحرر من هذه الذنوب، وأتاح له فرصة الاستمرار على هذا الخير والنور وسعادة الضمير..

يعمل الناس على تربية أولادهم، منذ أن يستهل المولود إلى أن يكبر ويخرج للمجتمع، ثم هناك طريقة للمجتمع لكي يتعامل مع أفراده

هذه التكاملية في اكتساب الأخلاق، منها التلقين، مثلا كتلقين الصبي الصغير وتعليمه بعض الأشياء حتى لا يكون أخذه فقط تلقائيا، لأن الأخذ التلقائي يتشرب معه الطفل كل شيء الطيب والسيئ، والممارسات الأسرية فيها أخلاقيات طيبة وفيها أخلاقيات سيئة، والطفل لا يميز يأخذ كل شيء ويمتصه، لذلك كان التلقين جزاء من العملية التربوية للطفل .. يجب تلقين الأشياء حتى تحذف التلقائية من اللاشعوري، مما تلقاه الطفل من تربيته لا شعوريا، وهذه التلقائية هي إعادة برمجة لسلوك الطفل المبادئ الطيبة، وتنبيهه على التصرفات التي امتصها تلقائيا، وهي تصرفات سيئة لو استمرت معه في حياته، **فالتلقين والتعليم بوجه عام** مثل تعليم التلاوة وتعليم القرآن حتى يستقيم لسانه عليه وهكذا **التوعية** أو ما يسمى في الإسلام **بالوعظ** تعاهد الناس بالمواعظ لماذا لأن طبيعة الناس يغفلون ويضعف الإيمان ويفتر، فيحتاج إلى تحريك، فتأتي **التوعية والوعظ،** لذلك كان الصحابة يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا بالموعظة، لماذا؟ كلما يفتر الناس يحتاجون إلى تذكير، إلى تحريك الإيمان، لأن الإيمان يركد فيحتاج إلى تحريك،

كما أنه يحرك من قبل الفرد جددوا إيمانكم قولوا: لا إله إلا الله.

كذلك يحرك من قبل المجموع، بالمواعظ، بالتناصح، بالأمر بالمعروف والنهي على المنكر، كل هذه الأمور تكسب الأخلاق شيئا فشيئا، كذلك التدريب والتربية على الشيء، ليس فقط مجرد تلقين، أو تعليم، أحيانا تحتاج القيمة إلى وقت حتى يتدرب الإنسان عليها، ويتربى على هذا الشيء فينضبط

سلوكه به، يحتاج إلى فترة لأن بعض المبادئ تحتاج إلى فترة حتى ينسجم معها السلوك ويرتبط بها، لأنها تحتاج إلى نوع من التعود، من سلوكيات الإنسان العادة، فالعادة تتحكم بالسلوك، فهنا لكي تهدم عادة وتبني عادة جديدة تحتاج إلى وقت حتى تدرب الإنسان عليها، ولا يكفي مجرد التلقين، نبغي أن يتحول هذا التلقين إلى ممارسة مرة ومرتين وثلاثة، حتى ينسجم الإنسان وتصبح عادته هذه العادة الطيبة، بدل عادته السيئة التي كان يمارسها.

من الوسائل: الترغيب والترهيب لأن الإنسان دائر دائما بين الرجاء والخوف، في كل أموره، ننظر في أمور الدنيا ننظر إلى التاجر مثلا نجد التاجر يشفق في أن يخسر ماله، وفي نفس الوقت يرجو أن يربح، كذلك الإنسان الذي يريد غرضا معينا، يرجو أن ينجح هذا الغرض، ويخشى أن يخفق، فالإنسان بفطرته بجبلته مجبول على هذين العنصرين، وهما يتحكمان في نفسه، لذلك جاء الترغيب والترهيب، **الترغيب** لانتشاله وإعلائه وإنهاض همته إلى الأعلى، **والترهيب** حتى لا تقعد به همته وتقعد به شهوته، إن لم يجذبه الترغيب ويرقيه جاءه الترهيب فساقه، وحذره وجعله يسير إلى الأمام، بدل أن ينتكس إلى الخلف.

كذلك من الوسائل في إكساب الأخلاق: المجاهدة، **{ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** فالوصول إلى مرضاة الله ليست بالشيء السهل، لذلك لما قال واحد ما التقوى؟ ضرب مثالا بالواقع، قال هل سرت في طريق مليء بالأشواك؟ قال نعم، قال ماذا صنعت؟ قال شمرت واجتهدت، يعني اجتهدت أن أزيل الشوك عن طريقي وأمشي شيئاً فشيئا، طبعا إزالة الشوك فيها معاناة فيها تعب فيها مشقة فيها تركز، كل هذه الأشياء فيها، فهنا قال: إني شمرت واجتهدت، قال: كذلك التقوى، يحتاج لك إلى تركيز ووعي، لأن القلب مثل النهر المتدفق، الخواطر فيه بشكل مستمر،

إن لقلب ابن آدم لمتان: لمة إلى الملك ولمة إلى الشيطان، فالملك يلقي فيه بالخواطر الطيبة، والشيطان يلقي به بالخواطر السيئة، وهذه الخواطر مستمرة، ليجرب أحدنا ويصبر قليلا ويتأمل، فيجد أن الخواطر مستمرة عليه، ولو أراد إيقاف هذا التيار المستمر لم يستطع إلا ربما لحظات، أو بواسطة التركيز على شيء آخر يقطع عليه هذا التيار المتدفق، وإلا فالتيار مستمر، وبحسب استمرار التيار يحتاج الإنسان إلى استمرار مجاهدةً النفس والهوى،

كذلك من الوسائل اكتساب الأخلاق **القدوة الحسنة** وقد سبق بالحلقات السابقة الإشارة إلى قول الله عز وجل: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** وفي القرآن الكريم **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}** فهنا القدوة الصالحة، ومن هذا الباب ذكر الصالحين بالقرآن الكريم وسيرهم، وذكر الطالحين وسيرهم، حتى يستفيد الإنسان من الأخلاقيات الطيبة ومن السير الصالحة، ويتجنب السيئة.

وأيضا من الوسائل: **التدبر والتفكر** هذا التفكر أولا هو مجال لإجراء حسابات للنفس، التاجر الناجح من يجري دائما حساب، يجري حسابات ما مدى ربحه؟ ومدى خسارته؟

ويراقب الأسواق بدقة، حتى لا يفوته المكسب ويفوته الربح، ولذلك الأصل بالمسلم أن يكون متفكرا ومعتبرا وعارفا بوقته معرفة جيدة، وأن يكون يعرف ما ينفعه ويعرف ما يضره، ويجري حساباته، وبالتالي يعيد التصحيح بشكل مستمر، إذا كان عقله واع وفكره حاضر، وكان متدبرا، وكان واعيا، سواء التدبر في كتاب الله، أو في كون الله سبحانه وفي خلقه سبحانه وتعالى ..

فالمجتمع له آليات متكاملة في التعاون على البر والتقوى، وفي التناهي عن الإثم والعدوان.

هناك الخطوة الأخيرة أو الوسيلة الأخيرة لاكتساب الأخلاق **وسيلة الحماية،** حتى لا يستشري الفساد، فهناك التشريعات القامعة لكل تصرف سيء، التي ينفذها الحاكم على من يتجاوز الحدود ويستطيل على الناس ويسيء الأدب،

هذا إن لم تجدِ معه الوسائل التربوية، ولم يجدِ معه ضغط المجتمع، يأتي موقف السلطة أخيرا لكي تؤدبه وترده عند حده، وتحفظ سفينة المجتمع من أن تغرق بتنفيذ التشريعات التي تحول دون النخر في واقع المجتمع وإساءة التصرفات أو إساءة الأخلاق، هناك حد أساسي لا بد من الوقوف عنده، لا يمكن تجاوزه، خط أساسي لا يمكن تجاوزه، وهناك ما بعده خطوط مفتوحة لمن أراد التنافس، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.